الفصل الرابع:

هناك مثل عربي يقول: «حية ربدة ولا ضيف مدة». «حية ربدة ولا ضيف الظهيرة».[1] لقد كنا حريصين أن لا نخرق سلوكنا بإطالة بقائنا أكثر من اللازم؛ ولذلك فقد رفعنا خيامنا استعداداً للرحيل قبل غياب الشمس. أن تستيقظ في فجر يوم في الصحراء يشبه أن تستيقظ في جوف حجر كريم متعدد الألوان. كانت السدم ترفع رؤوسها من الوديان والندى يجري كأكاليل زهور شبحية في أطراف الخيام السوداء، وقد انبثقت في البداية مع بهاء السماء الشرقية اللطيف ثم تلا ذلك أشعة الشمس الذهبية القاسية عند الشروق. وأرسلت منديلاً أرجوانياً مفضضاً إلى فلاح العزو من أجل الولد الصغير الذي كان يلعب برزانة حول الموقد.

وودعت نمروداً وداعاً جميلاً وشربت فنجان قهوة الوداع عند الشيخ الذي أمسك ركاب فرسي. ثم ركبت مع قبلان للرحيل. وتسلقنا جبل العليا عابرين قمة السلسلة الجبلية العريضة، ويشبه المنظر العام حدود بلادنا الإنكليزية، ولكنه أوسع وأكبر، لأن المنحدرات المتعرجة أكبر، والمسافات أبعد في المدى. وأثمل النسيم البارد الرائع كل أحاسيسي، جاعلاً الدماء تنبض في عروقي ـ باعتقادي أن الحديث عن خليج نابولي يجب أن يجري على نمط آخر، شاهد الصحراء في صباح رائع ثم مت بعد ذلك، إذا استطعت. ـ وحتى البغال المتبلدة الحس شعرت بروعة النسيم فأخذت تتسابق عبر الأرض الإسفنجية «جن الملعون» حتى ترنحت الأحمال على ظهورها ووقعت على الأرض

(١) ـ «المقصود هنا الضيف طويل الإقامة وليس ضيف الظهيرة، كما ترجمت المثل المؤلفة».

واضطررنا للوقوف مرتين لنعيد توضيبها وتحميلها مرة أخرى. ونظرنا بابتهاج إلى القليب الصغير أعلى قمة في جبل الدروز يلتمع بعباءته الثلجية بعيداً إلى الشمال.

ودخلنا عند سفح المنحدرات الشمالية لهضاب العليا سهلاً واسعاً متموجاً يشبه ذاك الذي تركناه في الجنوب. وعبرنا العديد من تلك الرجوم الغامضة التي تدعو الخيال إلى التأمل في تاريخ هذه الأرض. ولم نسر إلا قليلاً حتى وقعت أنظارنا على مضارب قبائل الحسانية مبعثرة هنا وهناك، وهم أصدقاء للدجا وينتمون للأصول القبلية نفسها. ولمحنا خيالين قادمين عبر السهل، وذهب قبلان لملاقاتهما، ووقف معهما بعض الوقت، ثم عاد مكفهر الوجه. أول البارحة وبينما كنا نسير بأمان راحلين من طناب هاجم أربعمائة خيال من

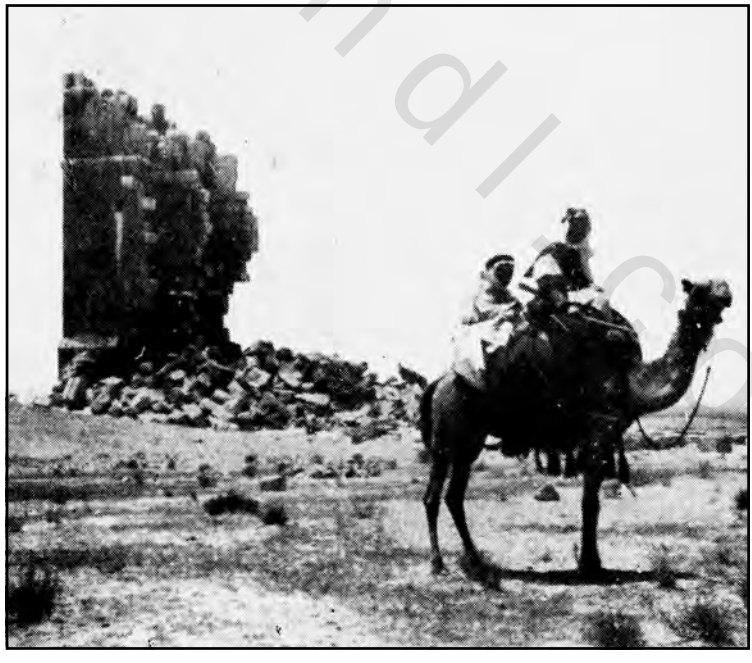

٣٨ ـ عرب يركبون بطريقة المردوف

الصخور المتحالفين على الشر مع الحويطات على نحو مفاجئ جماعة متطرفة من بني حسان وأخذوا خيامهم مع ألفي رأس من الماشية. وفكرت لقد كان أمراً يدعو إلى الشفقة مقدمنا في وقت متأخر من اليوم. ولكن قبلان أصبح أكثر اكفهراراً عند هذه النقطة، وقال: إنه مضطر للاشتراك في النزاع وبالتالي قد يضطر لتركي. وهكذا كنت مضطرة للتسليم بمسؤوليته. لأن قبيلة الدجا كانت مرتبطة بحلف مع بني حسان ضد الصخور. وربما كان عمل الأمس كافيا لتحطيم الهدنة التي ولدت حديثاً بين هذه القبيلة الكبيرة وأحلافها من عنزة وأن يشعل الصحراء كلها بالحرب مرة أخرى.

وقد كان هناك حزن في خيام أطفال حسان. ورأينا رجلاً يبكي بجانب عمود خيمته وقد وضع رأسه بين يديه نتيجة لفقده كل ما كان يملك. وتحدثنا في الطريق حول الغزو والقواعد التي تحكمه. إن ثروة العربي تتغير مثل ثروات المقامرين في سوق الأوراق المالية. فقد يكون من أغنى قاطني الصحراء اليوم فيصبح معدماً لا يملك فِلْو بعير. فهو يعيش في حالة حرب وحتى لو تبودلت أوثق الضمانات مع القبائل المجاورة. فليس هناك ضمان من أن يتعرض لغزو مجموعة من غير الجوار تأتي من على بعد مئات الأميال، فتكبس مضارب عشيرته في الليل. كما حدث منذ سنتين عندما غزت عشيرة بني عطية غير المعروفة في سوريا منطقة تقع إلى الجنوب الشرقي من حلب، قاطعة مئات الأميال عبر الصحراء، مراديف من ديارهم فوق بغداد حاملين معهم كل قطعان العشيرة المغزوة بعد أن قتلوا عشرين رجلاً من أفرادها.

تُرى كم ألفاً من السنين مرت والعرب في هذا الوضع ؟ قد يخبرنا من سوف يدرسون تاريخ أعماق الصحراء في الأيام الخالية. لأن هذا التاريخ قد يعود إلى الأيام الأولى لسكن الإنسان لهذه البوادي. ولكن رغم تعاقب كل هذه

القرون لم يكتسب العربي أي جانب من الحكمة من التجربة. فهو لا يعرف الأمان ويتصرف مع ذلك كما لو كان الأمان خبزه اليومي وهو ينصب مضاربه بمعدل يتراوح بين عشرة إلى خمسة عشر بيت للفريق الواحد في سهل واسع غير محمي في منطقة لا تتوافر فيها أي حماية. فهو بعيد عن بقية عشيرته بعداً لا تفيد معه أي استغاثة من أجل المساعدة بشكل يسمح بتجمع عدد كاف من فرسان العشيرة لملاحقة الغزاة الذين ينسحبون ببطء حسب سرعة سير القطعان التي سلبوها، بما يتيح إعادة القطيع المسلوب إذا تم تجمع الفرسان بالعدد المناسب وبالسرعة المناسبة، وعندما يفقد العربي كل ما يملك يمضي متجولاً في الصحراء شاكياً حالته هنا وهناك فيتصدق عليه الناس.

فهذا يعطيه شقة أو شقتين من الشعر وآخر يعطيه دلة قهوة وثالث يعطيه جملاً ورابع بضعة رؤوس من الغنم بحيث يصبح له سقف يؤويه وقطيع صغير يقي أسرته من الجوع. وهناك عادات جيدة عند العرب كما قال نمرود، فهو يتحمل صعوبة العيش لشهور وربما لسنوات حتى تسنح الظروف وتقوم خيالة قبيلته مع حلفائهم بالإغارة على عشيرة الخصم وتسترد جميع القطعان التي سلبت وأكثر. وتدخل العداوة مرحلة جديدة وهكذا. والحقيقة إن الغزو وهو العمل الوحيد الذي تعرفه الصحراء وهو اللعبة الوحيدة أيضاً. وكصفة فهي تبدو للعقل التجاري مستندة على مفهوم خاطئ لقوانين العرض والطلب ولكنها كلعبة، هناك الكثير مما يمكن قوله في هذا المجال.

فروح المغامرة تجد فيها هدفها الأسمى، وتستطيع أن تتصور مقدار الإثارة التي يشعر فيها الفارس وهو يقطع الفيافي في الليل الدامس. ثم اندفاع الخيول في الهجوم وروعة أزيز الرصاص «غير مؤذ نسبياً» والإحساس بالبهجة لشعورك أنك شخص ممتاز وأنت تعود إلى مضارب عشيرتك بالغنيمة. إنها ـ كما يقولون في الصحراء ـ ذروة النشوة والخيال الجامح مع

تتبيلها بالإحساس بالخطر. وإنذار الخطر ليس كبيراً جداً. فمن الممكن الحصول على مقدار لا بأس به من المتعة دون إسالة مقدار كبير من الدماء. ونادراً ما يميل الغزاة العرب للقتل. فالعربي لا يرفع يده ضد النساء والأطفال. وإذا سقط هنا أو هناك رجل قتيل فهو بمحض الصدفة غالباً، حيث ليس من السهل التأكد من مسار طلقة البندقية النهائي عندما تطلق في الليل على نحو عشوائي ؟ هذه هي وجهة نظر العرب بالنسبة للغزو.

أما الدروز فينظرون إليه على نحو مختلف، وهو بالنسبة لهم حرب حمراء. فهم لا يلعبون اللعبة كما يجب أن تلعب، فهم يذهبون للقتل وهم لا يوفرون أو يستثنون أحداً. فما دام لديهم ذرة بارود في القارورة وقدرة على سحب الزناد، فهم يقتلون كل من يجدونه أمامهم سواء أكان رجلاً أم امرأة أم طفلاً.

لقد شاهدت من خلال معرفتي باستقلالية النساء العربيات والحرية التي يتم من خلالها الاتفاق على الزواج بين القبائل المختلفة المتساوية في العراقة أو المحتد العديد من القصص العاطفية بين الجنسين يمتزج فيها الحب بالكراهية في صور مركبة. يقول عنترة:

٣٩ ـ أحد مضارب العجيل

علقتها عرضا واقتل قومها

زعما لعمر أبيك ليس بمزعم

وقال قبلان: إن مثل هذا الوضع الصعب قد حدث في الواقع وقد كان ينتهي في بعض الأحيان نهاية مأساوية، ولكن إذا قنع العاشقان بالانتظار فمن الممكن أن تحدث وساطة أو تسوية في المستقبل، أو من الممكن أن يستطيعا الزواج في بعض الفواصل التي تمنحها هدنة ما، ولكن الخطر الحقيقي يحدث عندما يقتل أحد الرجال رجلاً آخر من عشيرته حيث يمكن أن تنفيه العشيرة فيصبح من دون مأوى أو ملجأ، فيضطر للجوء إلى الأغراب أو الأعداء، وهذا امرؤ القيس الذي نفاه أبوه من العشيرة، فأصبح خارجاً على القانون يناجي الليل:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي

بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وعلى بعد أميال قليلة من مضارب الحسانية لم يكن قد سمع أخبار البارحة السيئة، وقد كنا مسرورين لإذاعة الخبر الجديد السيئ. وقد ركب قبلان باتجاه كل فرق العرب لينقل إليهم الخبر الذي يثقل فؤاده. وازداد عدد الرجال الذين يرتدون الأقمشة الخشنة بينما كنا نذهب. وربما كنت على خطأ في قبول التصريح الأصلي الذي زعم أن عددهم أربعمائة لأنه كان لديهم الكثير من الوقت ليتكاثروا خلال الأربع والعشرين ساعة التي انقضت بين انصراف الغزو ووصولنا. وانشغلت معظم البيوت ليس في الاستعداد للحرب وإنما في عمل الوليمة. فغداً العيد الكبير عند المسلمين، (عيد الأضحى) وذلك عندما ينحر الحجاج في مكة أضحياتهم ويحذو حذوهم الأتقياء الحقيقيون في بيوتهم. في كل بيت كانت هناك كومة من الشوك ليشوى

بوساطتها لحم الجمل أو الغنم في اليوم التالي. وانتشرت القمصان في كل مكان على أطناب خيم العشيرة لتجف في الشمس بعد غسلها الذي يتم ـ ولدي أسبابي لأعتقد ـ مرة واحدة كل سنة. ووصلنا حوالي غياب الشمس إلى مضرب شيخ بني حسان حيث قرر قبلان أن يقضي الليلة. كان ثمة بركة موحلة في المتناول قربنا، وموقع جيد لنصب خيامنا في منخفض من الأرض حيث كان العرب ينزلون. لم يكن أي من المشايخ الكبار مخيماً هناك. لاحظ ذهن نمرود اليقظ، ورفضت كل دعوات العشاء، وقضيت المساء في البيت حيث جلست أراقب غروب الشمس ونيران الطبخ والدخان الأزرق يسبح بعيداً في الشفق. كان جمل الأضحية يرعى وقد زين بجلال بَيِّنْ بغالي. واستقبل العيد بعد غروب الشمس بإطلاق مديد للرصاص من البنادق، وجلس قبلان صامتاً بجانب نار المخيم، كانت أفكاره مشغولة باللهو الصاخب على قدم وساق في مربعه. لقد مضت الأمور بمرارة ضد مزاجه حيث إنه مضطر أن يكون غائباً في مثل هذا اليوم. «كم خيال سينزل غداً في مضرب والدي؟ ولن

٤٠ ـ بئر صحراوية

أكون هناك لأُرحِّب بهم أو أن أتمنى عيداً سعيداً لابني الصغير». قال: وابتعدنا قبل ابتداء الفرح إذ لم يكن لدي رغبة بمشاهدة اللحظة الأخيرة لجمل الأضحية إضافة إلى أنه كان لدينا مسيرة يوم طويل عبر منطقة ليست آمنة بشكل خاص.

وبقدر ما كانت قافلتي موضع اهتمام، فإن المخاطرة كانت قليلة. كان لدي رسالة من فلاح العزو إلى نسيب الأطرش شيخ صلخد في جبل الدروز.

«إلى صاحب المقام الرفيع الشريف نسيب الأطرش (وهي تمضي كما سمعتها عندما كان يمليها على نمرود على النحو التالي): المبجل أطال الله عمره، السلام عليكم وعلى جميع أهالي صلخد وعلى أخوكم جاد الله وعلى ابن عمكم محمد الأطرش في أم الرمان وعلى أصدقائنا في أمتان، وبعد.. سوف يأتي إليكم من طرفنا سيدة من أكبر الأسر الإنكليزية. ونرسل تحياتنا أيضاً إلى محمد وإلى أصدقائنا. (وهنا تأتي لائحة أخرى من الأسماء) وهذا كل ما هو ضروري والسلام عليكم.. ثم ختم الرسالة بخاتمه».

٤١ ـ مجرى ماء في الصحراء

وبالإضافة إلى الرسالة وبصرف النظر عنها، فقد كان لدي ضمان ناتج عن انتمائي القومي، وذلك لأن الدروز لا ينسون تدخلنا إلى جانبهم في قضيتهم عام ١٨٦٠م[١] إضافة إلى أني سبق وتعرفت إلى عدد من مشايخ الطرشان الذي ينتمي إلى أسرتهم القوية الشيخ نسيب. ولكن قبلان كان في وضع مختلف، كان مدركاً إدراكاً قوياً غموض وضعه. فعلى الرغم من زيارة عمه للجبل لم يكن على يقين من كيفية استقبال الدروز له، لقد تجاوز آخر نقاط حدود حلفائه ودخل حدود أرض هي تقليدياً أرض معادية. لم يكن هو نفسه على معرفة بها فيما عدا الحملات التي كان يجمعها للغزو، وهو إذا لم يصادف أعداء بين الدروز فمن الممكن أن يقع بين أيدي مجموعة جوالة من أعداء أشد مرارة لعرب الدجا من عشيرة الحسنة أو ما شابهها من العشائر التي تخيم شرقي الهضاب. بعد مسيرة ساعة أو ساعتين اختلفت طبيعة المنطقة تماماً. فقد اختفت رمال الصحراء الناعمة وبدأت صخور حوران البركانية. وسرنا بعض الوقت فوق أخدود من الحمم البركانية، مخلفين وراءنا

٤٢ ـ جمال عشيرة الحسانية

(١) تشير المؤلفة هنا إلى الصراع بين الدروز والموارنة في لبنان عام ١٨٦٠م وتدخل الإنكليز إلى جانب الدروز وتدخل الفرنسيين إلى جانب الموارنة. (المترجم)

آخر خيام عشيرة الحسانية، في فسحة صغيرة من الأرض مفتوحة بين بعض التلال، لنجد أنفسنا بعد ذلك على حافة سهل ممتد حتى أطراف جبل الدروز، في امتداد فسيح مهجور تماماً، خالٍ تقريباً من النبات ومفروش بالحجارة البركانية السوداء. وقد قيل: إن حدود الصحراء تشبه الشاطئ الصخري الذي قد تتحطم عليه سفينة البحار الذي يقترب منه، بعد اجتيازه أهوال المحيط العميقة بنجاح. هذه الأرض التي كان علينا أن نخيم فيها. في مكان ما بين أرضنا هذه وبين الهضاب توجد آثار أم الجمال التي آمل أن أصل إليها مع الدروز ولكننا لن نبوح بمكانها من أجل سلامتنا، كان السهل المحيط بها مرتفعاً بما يكفي لحجب وحدتها عن الأنظار. ولأم الجمال الآن اسم مشؤوم، وأنا أظن أنني ثاني أوربي يعسكر بمخيمه على أرضها. وكان الأول عضواً في بعثة أثرية أمريكية وقد تُركت المنطقة قبل وصولي بأسبوعين.

٤٣ ـ خربة أم الجمال

عزز قلق قبلان الواضح سمعته السيئة فقد التفت نحوي مرتين ليسألني فيما إذا كان من الضروري أن نخيم في ذلك المكان. وقد أجبت بأنه تعهد أن

يقودني إلى أم الجمال. ولا مجال للتساؤل حول ذهابي، ودعمت عنادي مرة ثانية بإخباره إلى أننا بحاجة إلى الماء هذه الليلة من أجل سقاية الدواب وليس هناك مجال للحصول عليه إلا من صهاريج القرية الأثرية. وتواً أخرجت خريطتي وحاولت أن أخمن على الورق الأبيض الموضوع أمامي المكان الذي يجب أن نكون فيه، وانحرفت. بقافلتي قليلاً إلى الغرب باتجاه مرتفع ضئيل الذي ربما إذا أطللنا منه يمكن أن نرى هدف رحلتنا. وتقبل قبلان القرار برحابة صدر، وأوضح أنه يشعر بالأسف لأنه لم يكن مفيداً جداً في إرشادنا إلى الموقع تماماً. لقد مرَّ مرة واحدة في حياته بأم الجمال وكان ذلك في ليلة مظلمة أثناء عملية غزو. وقد توقف آنذاك مع جماعته لسقي خيولهم ثم توجهوا شرقاً عائدين من طريق آخر. لقد كانت ـ والحمد لله ـ غزوة ناجحة وكانت أول غزوة يقودها. وكان ميخائيل يستمع إلى مداولتنا بلا مبالاة، ولم يشترك البغالة بالمناقشة، ولكن عندما انطلقنا ثانية هيأ حبيب مسدسه ليجعله جاهزاً عند الضرورة.

وتابعنا المسير.. كنت معنية في البحث عن الرصيف وهو الطريق الروماني القديم الذي ينطلق من الزرقا مباشرة إلى بصرى، وفي التساؤل أيضاً عما يجب أن أفعله إذا اضطررت لحماية الدليل الصديق الذي أفعمت صحبته رحلتنا مرحاً وحيوية، والذي يجب أن لا يتعرض لأي أذى مادام في صحبتنا. ولاحظنا عندما اقتربنا أكثر من الأرض المرتفعة حظائر للغنم، كما استطعنا أن نرى في الوقت نفسه رجالاً يجمعون قطعانهم ويسوقونهم خلف الجدران السوداء. وكانت تحركاتهم السريعة تنذر بالخطر كما شاهدنا بعض الأشخاص لم نستطع أن نتبين ما إذا كانوا راجلين أو راكبين يتقدمون باتجاهنا

من خلال واد إلى اليسار وبعد لحظة ارتفعت نفثتا دخان أمامهم وسمعنا صوت البنادق.

والتفت قبلان باتجاهي بإيمائة سريعة قائلاً: «ضربونا»..

قلت بصوت عالٍ: «إنهم خائفون»

ثم همست لنفسي: «ونحن كذلك».

ورفع قبلان نفسه في ركاب فرسه، ثم سحب فروته المخططة من على كتفيه ولفها حول ذراعه الأيسر، ثم أخذ يحركها فوق رأسه، وتابع سيره وأنا معه بسرعة بطيئة نحو الأمام، وأطلقت طلقتان أخريان وواصلنا سيرنا نحو الأمام واستمر قبلان برفع علم السلام (تقصد فروته) وتوقف إطلاق النار ولم يحدث أي شيء بعد ذلك، فيما عدا الترحيب المتوقع تجاه الأغراب، مراراً بالأسلوب البربري الطائش، وتبين أن مهاجمينا كانا عربيين، وأخذا يتهامسان. وكانا جاهزين للتفاهم معنا ودياً حالما عرفا أننا لسنا من لصوص المواشي ورغبا جداً في إيصالنا مباشرة إلى أم الجمال. وحالما درنا حول التل رأينا أم الجمال أمامنا. كانت أبراجها السوداء وأسوارها تقف صامدة في الصحراء بحيث بدا من غير الممكن الاعتقاد بأنها قد هجرت قبل ثلاثة عشر قرناً. ولم نستطع أن نتبين الصدوع والشقوق في حجر البناء المسامي إلا بعد أن أصبحنا بقربها. واندفعت إلى الأمام إلى قلب البلدة، ولكن قبلان أمسك بي ووضع يده في لجام فرسي.

«أنا أذهب أولاً» ثم قال: «أنت في عهدتي يا سيدتي».

وحيث إنه كان الشخص الوحيد الذي يتحمل مسؤولية مغامرتي وكان عارفاً بالوضع تماماً فإن الحل الذي يقدمه يعطيه مزية.

وتحركنا بقعقعة فوق أسوار الخربة دائرين حول ساحة برج الدير الذي كان المَعْلَمَ الأساسي في أم الجمال. وركبنا داخل مكان مفتوح بين شوارع مقفرة، لم يكن هناك ما يخيف، كما لم يكن هناك إشارة تدل على الحياة ما عدا خيمتين صغيرتين سوداوين، وقد رحب بنا سكانهما بحماس وعرضوا أن يبيعونا حليباً وبيضاً بأسلوب حبي كبير.

والعرب الذين يعيشون في سفوح جبال حوران يسمون جبيلية (أي سكان الهضاب)، وهم لا يتمتعون باحترام كبير، فهم إما خدم أو رعاة عند الدروز. ففي الشتاء يرعون القطعان التي ترسل إلى السهل ويسمح لهم في الصيف برعي المنحدرات غير المفلوحة لغنمهم الخاصة.

لقد قضيت الساعة المتبقية من ضوء النهار في فحص مدينة الموتى النبطية الرائعة خارج السوار. وكان السيد داسو قد بدأ العمل بها قبل خمس

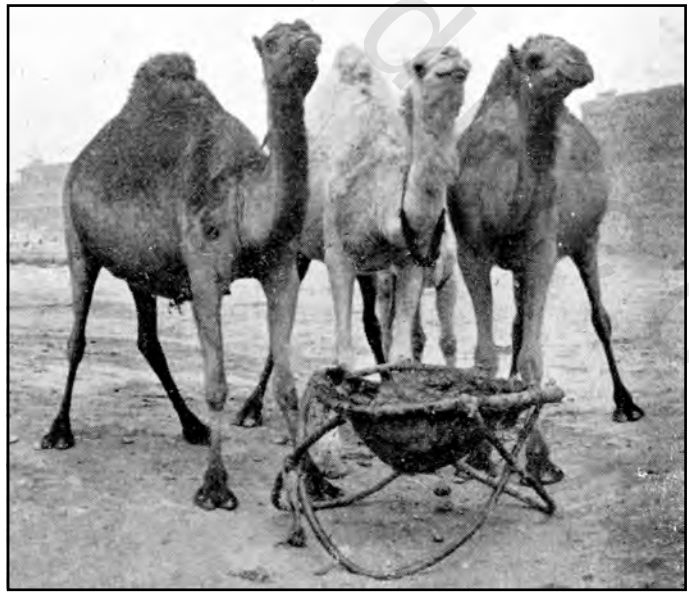

٤٤ ـ سقاية الجمال

سنوات والسيدان بتلر والدكتور ليتمان اللذان تلت رحلتهما مباشرة رحلتي سوف يجدان نفسهيما مضطرين للمتابعة عندما سيقدمان كتبهما للعالم. وقد فحصا عدة قبور لم تكن قد اكتشفت، كما لاحظا وجود عدة تلال يمكن أن تخفي قبوراً أخرى. وقد أبعدت مرافقي وتجولت في الغسق عبر شوارع خربة المدينة داخل غرف كبيرة وأدراج حجرية لا تزال سليمة، حتى أتى قبلان وطلب مني الدخول إلى الخيمة، قائلاً:«إن أي رجل يشاهد كائناً مرتدياً فروة يتحرك في هذا المكان بعد حلول الظلام سوف يعده شبحاً لغول وسيطلق عليه الرصاص». وأكثر من ذلك كان يريد أن يسألني فيما إذا كان يستطيع العودة إلى طناب، وأن أحد العرب يمكن أن يقودنا في اليوم التالي إلى أول قرية درزية. وعندئذ سيصبح قبلان غير قادر على الاقتراب أكثر من الجبل. وقد وافقت على رجوعه فوراً، والحقيقة أنني شعرت بالراحة أن أضمن سلامته وجدانياً. وقد تلقى ثلاث ليرات ذهبية فرنسية لقاء أتعابه، ورسالة ممتلئة بالشكر الحار لفلاح العزو. وودعنا بعضنا مع التأكيدات بأن الله سوف يجمعنا ثانية لنقوم برحلة أخرى معاً.

تتناثر القرى المهجورة في سفوح جبل حوران الصخرية منذ الفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي. وقد زرت خربتين كانتا في طريقي وهما شبحا وشبحية، فوجدتهما تشبهان خربة أم الجمال، فهما تبدوان من بعيد كبلدتين جيدتي البناء، بأبراج مربعة ترتفع فوق شوارع من أبنية ثلاثية الطوابق. وفي الأمكنة التي سقطت فيها الأسوار بقيت الحجارة في مكان سقوطها لم تمس إذ لم يحفل أحد برفع هذه الأنقاض. وقد كان السيد دوفاج هو أول من وصف آثار حوران. ولا تزال كتبه هي المصدر الأساسي للمعلومات

في هذا المجال. ولا يوجد أي خشب في هذه الأبنية، فحتى الأبواب مصنوعة من الحجارة الصلبة، وتدور على أجران أو مقاصل حجرية. كما أن النوافذ مكونة من أحجار مسطحة ثبتت بنماذج تجعلها قابلة لحركة الفتح والإغلاق. ويلاحظ في بعض الأحيان وجود آثار لأروقة معمدة أو أن الجدران تتخللها نافذة مزدوجة تم تدعيم قوسها بعمود صغير ورأس عمود بسيط خشن غير مصقول. وقد زينت الأبواب غالباً بصلبان أو رموز مسيحية. وفيما عدا ذلك فإن التزيينات قليلة، وقد تم سقف الغرف بوساطة أحجار مسطحة وضعت على ظهر أقواس بارزة. وبعيداً عن أي تأكيد فإن النقوش النبطية والقبور هي النقوش الأقدم التي تم كشفها في المنطقة، وقد تبع الفترة النبطية العديد من الآثار الوثنية الرومانية، ولكن الحقبة الأكثر ازدهاراً كانت فيما يبدو الحقبة المسيحية.

كان الفتح الإسلامي بمثابة النهاية لفترة الازدهار في أراضي حوران. وكانت القرى التي سكنت مرة أخرى قليلة العدد جداً أو نادرة، وعندما جاء الدروز قبل مائة وخمسين سنة إلى المنطقة وجدوها خالية من السكان[1] وقد اعتبروا الجبل جبلهم، وأعادوا سكن القرى المهجورة مدمرين في نفس الوقت البلدات القديمة، ثم امتدوا بملكيتهم إلى السهول الجنوبية. على الرغم من أنهم لم يوطدوا أقدامهم في القرى المتنازع عليها التي بقيت أرضاً سعيدة لدراسات علماء الآثار. وسوف تعمل البعثات الأميركية خيراً باستعمال الكميات الكبيرة من المواد الموجودة هناك. وهم يعلمون أن العمل قد تم بأيد

(١) ـ لم يكن الفتح الإسلامي هو السبب في هجرة سكان هذه المنطقة.. إن السبب الرئيسي للهجرة كان فترة الحروب الصليبية ثم غزوات المغول والتتار. ولا يزال الريف السوري مليئاً بالقرى المسيحية ولا شك أن انحلال الدولة المركزية وسيطرة البدو على البادية قد أدى دوراً في هجر الكثير من القرى سواء أكان سكانها مسيحيين أم مسلمين. (المترجم)

أفضل من يدي، فقد تابعت على الطريق نفسه وسلكت الخطى نفسها . ولكني لم أستطع أن أتغلب على غريزة طبيعية بالتوقف عن نسخ النقوش. والنقش أو النقشان اللذان هربا من عيني الدكتور ليتمان اليقظتين ووقعا بالمصادفة أمام عيني سلمتهما له عندما التقينا في دمشق.

واتخذ دليلنا الجديد فندي على عاتقه نقل الأقاويل والشائعات المنتشرة في الجبل إليّ. لقد كان ملك الموت مشغولاً بين عائلة الطرشان الكبيرة خلال

٤٥ ـ حزم متاع المخيم

السنوات الخمس الماضية. فقد مات فايز الأطرش شيخ قرية القِرَيَّه، وقال بعضهم إنه مات مسموماً. كما مات قبل أسبوع أو أسبوعين من وصولي أكثر زعماء الدروز شهرة. شبلي بك الأطرش. وقد مات في ظروف غامضة إثر مرض عضال، وقد قيل: إنه سمّ أيضاً. كما كان هناك الحرب الواقعة الآن، غزو مرعب لعرب وادي السرحان للانتقام وحساب مع الصخور يجب أن يسدد، ولكن ثمة تقدم بشكل عام، فهناك سلام يتمتع به الدروز على نحو معقول. وانقطعت المحادثة ببضع رصاصات أطلقت على أرانب مستلقين في الشمس، وربما كانت هذه رياضة غير نبيلة ولكنها تساعد على ملء القدر وتشكيل طعامه. بعدوقت قليل تركت فندي والبغال لتسير في طريقها. وأخذت طريقي الخاص مصطحبة معي ميخائيل، عاملة جولة كبيرة لزيارة البلدان المخربة. كنا قد أنهينا للتو غداءنا تحت جدار مخرب عندما أبصرنا خيالين متجهين نحونا عبر السهل. فرفعنا فوراً بقايا الغداء وركبنا فرسينا بسرعة، من خلال إحساسنا أنه من الملائم لنا أن يكون أي استقبال لنا على ظهور الخيل. ووقفا أمامنا وحيونا وأتبعوا التحية فوراً بالسؤال عن وجهتنا، وأجبت: إلى صلخد إلى نسيب الأطرش.. فتركونا نمرّ بدون ملاحظات أخرى. لم يكونا دروزاً لأنهما لم يكونا يضعان على رأسيهما تربان الدروز. كانا مسيحيين من القِرَيَّة حيث يوجد تجمع مسيحي كبير. وهما ذاهبان إلى أم الجمال لزيارة مرابع قطعانهما الشتوية. هكذا قال فندي الذي مروا به على مسافة ميل بعدنا. وشاهدنا قبل الوصول إلى الأراضي المزروعة حديثاً بعدة ساعات علامات زراعات قديمة، على شكل خطوط متوازية طويلة من الحجارة قد كومت على طرفي الأرض التي كانت في يوم من الأيام خصيبة مملوءة بالفواكه. كانت تبدو وكأنها حافة وثلم لمرج ضخم، ومثل أي حافة وأخدود

ليس من السهل محوها. إنها علامات العمل الذي توقف مع الفتح العربي[1] عند سفح تل الشيح وهو أول قمة من قمم الهضاب بعد تركنا الصحراء غير المزروعة ودخولنا منطقة الحقول المثمرة. كما تركنا أيضاً سهول الفيافي الطويلة النظيفة وعلقنا بالطرقات السورية الموحلة التي تغطس فيها سنابك الخيول، والتي قادتنا إلى هضبة أم الرمان على حافة أخفض نجد في جبل الدروز وهي نقطة موحلة قليلاً وجرداء، كما يمكن أن تأمل وتريد، وتوقفت في مدخل القرية، وسألت مجموعة من الدروز أين يمكن أن أجد مكاناً لأنصب خيامي فأرشدوني إلى مكان قذر جداً تحت المقبرة، قائلين: إنه لا توجد منطقة أخرى لا تفسد الأرض المزروعة أو المراعي. مع أن ما يدعو للسخرية هو أن الزرع ما يزال تحت الأرض والعشب ليس إلا قليل من العشب اليابس المغطى بالثلج الذائب. ولم أستطع أن أتقبل فكرة التخييم بجانب المقبرة، وأمرت أن نسير مباشرة إلى منزل محمد الأطرش شيخ أم الرمان. كان هذا الأمير جالساً فوق سطح منزله لمراقبة وتوجيه بعض العمليات الزراعية التي كانت تتم أمامه في الأرض الموحلة. لقد جعلته سنون عمره الطويلة مثل الشبح وقد تعزز التأثير بعدد لا يحصى من الأثواب التي اضطره البرد لارتدائها في هذا الشتاء القاسي، واقتربت بالمقدار الذي سمح به الوحل وصحت: السلام عليكم يا شيخ..

(١) مرة أخرى تعبر المؤلفة عن حقدها الصليبي على العرب والإسلام. إنها لا تريد أن تعترف أن الحروب الصليبية التي شنتها أوربا الهمجية المتخلفة والتي كانت بلاد الشام مسرحاً لها ودامت مائتي سنة هي السبب الرئيسي للدمار الحضاري الذي حدث في هذه البلاد وليس الفتح الإسلامي. لقد بقي المسيحيون حتى أوائل القرن العشرين يشكلون قريباً من نصف السكان وكانوا منتشرين في جميع أرجاء بلاد الشام في الريف وفي المدن. ولو كان العرب همجيين مثل الإنكليز أو الأوربيين الذين أبادوا سكان استراليا الأصليين وأبادوا هنود حمر أمريكا في العصر الحديث. كما طردوا كل العرب المسلمين من إسبانيا والبرتغال وصقلية وكريت إلخ. لما بقي المسيحيون بهذه النسبة. (المترجم)

«عليكم بالسلام» صاح بأعلى صوته.

«أين توجد في قريتكم بقعة جافة لأنصب خيامي؟»

وتشاور الشيخ بأعلى صوته مع أتباعه الذين يعملون في الوحل، وأجاب في النهاية أنه لا يعرف بالله. وبينما كنت محتارة إلى أين أذهب تقدم شاب درزي وأعلن أنه يمكن أن يريني مكاناً خارج البلدة. وشعر الشيخ بالراحة بالخلاص من المسؤولية، وأوصاني ـ بصوت عالٍ ـ أن أذهب بسلام. واستأنف أشغاله. كان دليلي شاباً ذا ملامح مسنونة واضحة، وتعابير ذكية صارمة تعكس أصله العرقي، كان يتمتع أيضاً مثل كل عشيرته بفضول قوي، وبينما كان يقفز من جهة إلى أخرى في الطريق لتجنب برك الوحل والثلج نصف الذائب، أخذ مني كل قصتي. من أين أتيت وإلى أين سأذهب، ومن هم أصدقائي في جبل الدروز، وما اسم أبي، وهو أمر يختلف فيه كثيراً عن العرب الذين يعدون أن من أهم الأمور التي تدل على كرم المحتد عدم سؤال الضيف عما لا يريد هو البوح به.

٤٦ ـ محمد الأطرش

«وثمة قصة طريفة في تاريخ الطبري تتحدث عن رجل لجأ إلى أحد مشايخ العرب، وطالت إقامته ومات الشيخ وخلفه بالمشيخة ابنه وتقدم بالابن العمر، وذات يوم سأل أكبر أولاد الابن أباه: ما اسم هذا الرجل الذي يعيش بيننا منذ عهد طويل؟ فأجاب الأب لقد جاء

ولجأ إلينا على عهد والدي وكبر أبي ومات وهو الآن تحت وصايتي وها أنا قد كبرت وفي كل هذه السنين لم نسأله عن اسمه ولماذا لجأ إلينا، ويجب أن لا تسأله أنت».

وبعد فقد تمتعت بأن أجد نفسي مرة أخرى بين أذكياء متميزين من ذوي العيون الجبلية المكحلة، حيث يستدعي كل سؤال جواباً سريعاً أو تفادياً رشيقاً. وعندما زاد محاوري تساؤلاته لم يكن علي إلا أن أجيب.

اسمع أنت: أنا لست أنتِ، نادني فخامتك !

فضحك وفهم وأخذ التعنيف مأخذ الجد.

هناك نقوش كثيرة في أم الرمان، قليل منها نبطي والبقية بالخط الكوفي، مما يثبت أن البلدة الواقعة على رف الهضاب كانت مستقراً ومسكونة من أزمان مبكرة، وأنها سكنت مرة أخرى بعد الفتح الإسلامي. وتبعني حشد مبهج من الأطفال الصغار، من منزل إلى آخر، متعثرين بعضهم ببعض من خلال شغفهم باكتشاف حجرة منقوشة مبنية في أحد الجدران، أو موضوعة على الأرض حول الموقد. وفي أحد البيوت أمسكت امرأة بي وتوسلت إليَّ أن أشفي زوجها. كان الرجل راقداً في زاوية غرفة ليس فيها نافذة ووجهه مضمد بأضمدة قذرة، وعندما تم رفع هذه الأضمدة انكشف جرح مريع، كان طريق رصاصة قد مرت من الوجنة محطمة الفك. ولم أستطع فعل شيء سوى إعطائه مطهراً ومناشدة امرأته أن تغسل الجرح وأن تضمده بأربطة نظيفة. وفوق كل ذلك أن لا تسمح له بشرب المطهر، مع أنني شعرت أن الفائدة سوف تكون صغيرة جداً بصرف النظر عن طريقة الاستعمال. وقد تخطفه الموت

سريعاً بعد مغادرتي. كان هذا أول سلسلة من المعاناة التي لابد أن تقع أمام العينين، وتمسك على نحو مؤسف بمشاعر أي رحالة في المناطق المقفرة. فيصاب الرجال والنساء بالقرحات والآلام المبرحة والحمى الروماتزمية. ويصاب الأطفال بالشلل حال ولادتهم، والعميان والمعمرون، لا يوجد منهم من لا يتأمل أن تقدم له الحكمة الغربية التي لا حد لها علاجاً لما يعاني منه، وأنت تقف وجهاً لوجه أمام عمق المأساة الإنسانية مشدوهاً عاجزاً فاقد الحيلة.

قادني طريق الآثار في النهاية إلى باب بيت الشيخ، ودخلت لأزوره زيارة رسمية، وكان الآن أكثر ميلاً لإظهار كرمه، حيث إن عمل النهار قد انتهى. وجلسنا سوية في المقعد (غرفة الضيوف) وهي غرفة قذرة معتمة خارج البيت في وسطها موقد حديدي، وتناقشنا في الحرب اليابانية والغزو، وبقضايا محلية بينما كان سلمان ابن الشيخ وهو شاب جميل في السادسة عشرة يعد القهوة، والشيخ محمد هو ابن حمو شبلي ويحيى بك الأطرش، الذي كان مضيفي قبل خمس سنوات عندما هربت إلى قريته عري من المدير التركي في بصرى. وسلمان هو الولد الوحيد لأبيه الطاعن في السن، وهو الباقي الوحيد لعائلة الطرشان الشهيرة في عري، حيث إن شبلي قد مات ويحيى ليس له أولاد. وسار الولد معي عند رجوعي إلى مخيمي وكان يقفز بخفة عبر الوحول، شخص مرح وشغوف على نحو مؤثر هيئة مميزة تتناسب مع من ينحدر من أسرة نبيلة مثله. وهو لم يذهب إلى المدرسة على الرغم من وجود مكتب كبير للدروز في قرية القرَيَّة على بعد خمسة عشر ميلاً يديره مسيحي وبعض المتعلمين.

«والدي يعزني كثيراً» أوضح «لذلك لم يدعني أتركه»

«آه يا سلمان» أنا بدأت.

«يا ألله» التفت على عادة من يرد بقوة عندما ينادى باسمه.

«إن عقل الدرزي يشبه الفولاذ الجيد، ولكن ما قيمة الفولاذ إذا لم يصنع منه سيف قاطع ؟.»

فأجاب سلمان «ولكن عمي شبلي لا يقرأ ولا يكتب.»

قلت: «لقد تغير الزمان، يحتاج آل الأطرش إلى عقول مثقفة إذا أرادوا أن يقودوا الجبل كما فعلوا في الماضي».

ولكن تلك الزعامة أصبحت من الماضي، فشبلي قد مات ويحيى ليس له أولاد، ومحمد أصبح عجوزاً وسلمان غير متطور. وقد خلف فايز أربعة أولاد ولكن ليس لهم سمعة. ونسيب وسيم لكنه جاهل، وهناك مصطفى في متان الذي تخلى عن دوره كرجل مهم وهو قليل الذكاء، وحمود في السويداء الذي تميز بثرائه، وأن الأكبر بين الدروز بدون شك هو أبو طلال في شهبا. ولكن الأكثر تألقاً هو محمد النصر في عرمان.

كان الليل بارداً على نحو قاس، وكان ميزان الحرارة الخاص بي قد انكسر، ولذلك لم يكن ممكناً تسجيل درجة الحرارة بدقة، ولكن في كل صباح حتى وصلنا إلى دمشق، كان الماء في الكأس الموجود بجانب فراشي يتجمد كقطعة من الجليد، كما تجمد في إحدى الليالي جدول صغير، كانت المياه تتدفق فيه بسرعة فأصبح قطعة جليد قاسية وتوقف جريانه، وقد أوى البغالة والحيوانات إلى أحد الخانات أثناء فترة الصقيع هذه، ومحمد الدرزي الذي عاد إلى اسمه الأصلي وعقيدته، اختفى منذ اللحظة التي نصبت فيها خيامنا وأمضى الليلة متمتعاً بضيافة أقربائه.

ولذلك فقد قال ميخائيل ساخراً: «كل إنسان قدّم إليه وجبة طعام يعده ابن عمه».

كنت مضطرة أن أتأخر بانطلاقتي هذا الصباح من أجل أن أغتنم دعوة الشيخ للإفطار في ساعة تاسعة مطاطية جداً بعد شروق الشمس بساعتين. ومن يعلم بالضبط متى يروق لذاك الكوكب المنير أن يشرق؟.

كان جمع ظريف، وقد تناقشنا حول حرب اليوم وبكل ما تحمله من احتمالات نظرية؛ لأنني كنت الوحيدة التي لديها أنباء عنها، وقد أخذتها من جريدة التايمز الأسبوعية من عدد قديم صدر قبل شهر، ثم سألني محمد لماذا يبحث الأوربيون عن النقوش والآثار.

«ولكني أظن أنني أعرف» استطرد «لأنهم ربما يعيدون الأرض إلى ملاكها الأصليين».

وأكدت أن آخر سلالة ملاكها الأصليين في حوران قد مات منذ ألف سنة، وأصغى بأدب مغيراً الموضوع بنفخة في الهواء لإنسان لم يتلق جواباً صحيحاً.

ركب الشاب الذي أرشدنا إلى أرض مخيمنا معنا إلى صلخد قائلاً: إن لديه عملاً هناك وأنه اختار حسن الصحبة بالمناسبة. كان اسمه صالحاً وهو من عائلة متدينة ويحسن القراءة والكتابة. وقد أخطأت جداً بالمناورة عندما سألته عمَّا إذا كان من مشايخ العقل.

ـ ينقسم الدروز إلى عقال وجهال. ولكن حدود التمييز الاجتماعي والوجاهة لا تتبع هذا التقسيم فمعظم الطرشان من الجهال.

وقد وجه إلي نظرة حادة قائلاً: «ماذا تظنين ؟»

وشعرت بخطئي وقفلت الموضوع.

ولكن صالحاً لم يكن ليدع فرصة لا يربح منها بعض المعلومات، وقد سألني بدقة عن عاداتنا منتهياً إلى قوانين الزواج والطلاق، وقد فكر طويلاً في القاعدة الإنكليزية التي توجب على الأب أن يدفع للرجل الذي سوف يتزوج ابنته (وهكذا فسر العادة بإعطائها مركزاً بالزواج، وقد ضحكنا معا من سخف هذا النظام.) كان قلقاً حول معرفة وجهات النظر الغربية حول خلق العالم وبداية المادة. واضطررت إلى تقديم بعض الأفكار الهرطقية إليه، وقد تقبلها بكثير من التفهم والقبول بأكثر مما توحي به. وقد أمضينا صباحا مقبولاً بالرغم من الوحل ووعورة الطريق، وعلى حافة الأكاليل الثلجية أسرع

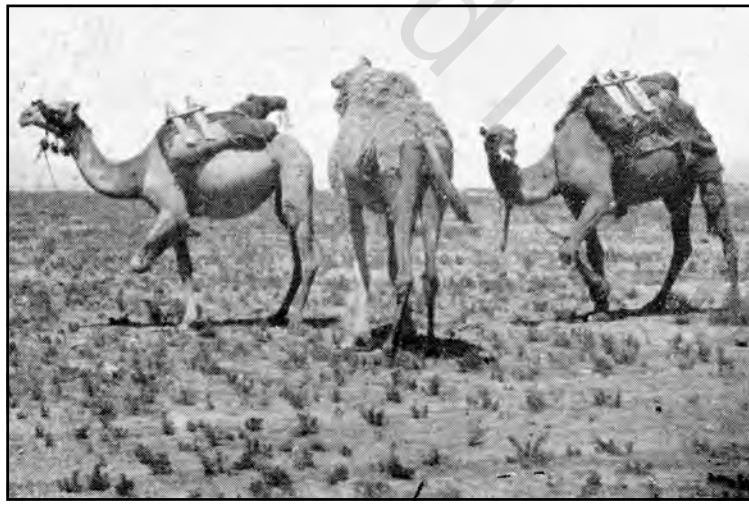

٤٧ ـ نباتات الصحراء وحيواناتها

الزعفران الأرجواني الأصفر بتكوين براعمه، وأزهر معه ثوم نجمي أبيض ـ الجبل غني جداً بأزهار الربيع ـ وكانت المناظر إلى الجنوب في السهل الكبير الذي عبرناه فاتنة. وأزهرت الهضاب إلى الشمال بالثلج الذي غطى المنحدرات بدون انقطاع، وكانت منطقة القليب تشبه مناطق جبال الألب بقممها المتجمدة المغطاة ـ تقريباً ـ بالضباب. ووصلنا صلخد هدف رحلتنا في الساعة الثانية بعد الظهر.

obeikandl.com